إضافة «الجمع» الى «المثنّى» في العربية

طه هاشم الدليمي(*)

المقدمة :

لا شك في أنَّ محبَّ اللغة العربية الكريمة يطمح في أنْ يكون كلامه جارياً على أعلى درجات الفصاحة والبيان، ومن المعلوم أَنَّ باب الإضافة في العربية باب من أبوابها الواسعة الفصيحة ومن هذه الإضافة إضافة الجمع الذي أصله مثنّى الى المثنّى فهم يقولون: ما أَحْسَنَ وجوههما بدلاً من: ما أَحْسَنَ وجهيهما. ولابد من القول أَنَّ سيبويه (ت١٨٠هـ) أول من نبّه على هذا الأسلوب العربي ذلك أَنَّه قال في الكتاب:(باب ما لُفِظَ به مثنى كما لُفِظَ به بالجمع)[١] وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في باب سمّاه (مخالفةُ ظاهرِ اللفظِ معناه): «... ومنه جمعٌ يراد به واحد واثنان كقوله: (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَة مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)»[٢] واحد واثنان فما فوق وقال قتادة (ت١١٧هـ) في قوله تعالى: (إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ)[٣] كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي (ﷺ) ويسير مجانباً لهم فسماه الله

(*)باحث في التراث العربي/ العراق.

(١) الكتاب ٢/٢٣٧

(٢) النور / ٢

(٣) التوبة /٦٦

طائفةً وهو واحد، وكان قتادة يقول في قوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلحُجُرَٰتِ[٤] هو رجل واحد ناداه: يا محمد إنَّ مدحي زين وإنَّ شتمي شين فخرج اليه النبي (ﷺ) فقال: ويلك؛ ذاك الله جلّ وعزّ ونزلت الآية وقوله سبحانه: (فَإِن كَانَ لَهُ إِخوَة فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ)[٥]، أي أَخَوَانِ فصاعداً. وقوله سبحانه وتعالى: (وَأَلقَى ٱلأَلوَاحَ[٦]، جاء في التفسير أَنَّهما لوحان. وقوله تعالى: (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَد صَغَت قُلُوبُكُمَا)[٧]، وهما قلبان[٨]. وقد نقل ابن فارس (ت٣٩٥هـ) قول ابن قتيبة المتقدم من غير إشارة اليه في باب سمّاه: (بابُ الجمعِ يُرادُ به واحدٌ واثنان) وذكر شيئاً من الشواهد القرآنية المتقدمة[٩].

الكلمات المفتاحية: الجمع، الإضافة، المثنّى.

إنَّ هذا البحث معنيٌّ بالمثنّى الذي ورد مجموعاً مضافاً الى مثنّى كما في قوله تعالى (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَد صَغَت قُلُوبُكُمَا)[١٠]، فإنَّه تعالى قال (فقد صغت قلوبكما) بجمع القلب ولم يقل تعالى (فقد صغا قلباكما) لأنَّه أراد بالمثنى (قلباكما) معنى الجمع ثم هذا الجمع مردود إلى ضمير المثنى وهو (كما).

وقال أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) في جمعِ شيئينِ من اثنينِ : «من سُننَ العرب اذا ذكرتْ اثنين أَنْ تُجريهما مُجرى الجمعِ كما تقول عندَ ذكرِ العُمرَينْ والحَسَنينْ: كرّمَ اللهُ وجوهَهما وكما قال عزّ ذكره: (إِنْ تَتُوبا إلى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) ولم يقل قلباكما كما قال عزّ وجلّ: (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقطَعُوٓاْ أَيدِيَهُمَا)[١١]، ولم يقل يديهما»[١٢].

تعليل جعل المثنى جمعاً

يظهر أنَّ جمع المثنى الذي أُضيفَ الى المثنى قد شغلَ ذهنَ سيبويه فقد قال إنَّه سأل استاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) عن سبب الجمعِ في قولِ العربِ: (ما أَحْسنَ وجُوهَهُما) للاثنين فقال له استاذه الخليل: لأَنَّ التثنيةَ جمعٌ وهو بمنزلة قولِ الاثنينِ: نحنُ فعلنا[١٣].

وكان سيبويهِ قد نقل عن يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) قولَ العرب[١٤]: (ضَعْ رحالهَما وغلمانهَما) للاثنين مستدلاً بقوله تعالى: (وَهَل أَتَٰكَ نَبَؤُاْ ٱلخَصمِ إِذ تَسَوَّرُواْ ٱلمِحرَابَ إِذ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنهُم قَالُواْ لَا تَخَف خَصمَانِ[١٥] وبقوله تعالى :(قَالَ كَلَّا فَٱذهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّستَمِعُونَ)[١٦]، وعلّل أبو زكريا الفرّاء(ت ٢٠٧هـ) هذا الجمعَ في تفسيره قولَه تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) الآية

(٤) الحجرات /٤.
(٥) النساء/١١ .
(٦) الأعراف/١٥٠.
(٧) التحريم /٤.
(٨) ينظر: تأويل مشكل القرآن /١٧٠ -١٧٣.
(٩) ينظر: الصاحبي /٣٤٩-٣٥٠ .
(١٠) التحريم/٤ .
(١١) المائدة/٣٨ .
(١٢) فقه اللغة /٤٨٧.
(١٣) ينظر: الكتاب ١/ ٢٨٠ .
(١٤) الكتاب ١/١٢٢.
(١٥) الشعراء/٢١،٢٢.
(١٦) الشعراء /١٥.

المتقدمــة فقال: وانما قال أيديهما لأن كل شــيء مُوَحّــد من خَلْقِ الانســان[١٧]، اذا ذُكر مُضافاً الى اثنين فصاعداً جُمعَ فقيل: (قد هشَّــمْتُ رؤوسَهُما ومــلأتُ ظُهورَهما وبُطونَهما ضربــاً) ومثله: (إنْ تتوبا الى الله فقد صَغَتْ قلوبكما) الآية المتقدمة وانمــا أُختير[١٨] الجمــعُ على التثنيــة لأَنَّ اكثرَ ما تكــونُ عليه الجــوارحُ اثنين في الانســان اليدينِ والرجليــنَ والعينيــنِ فلّما جرى اكثــرهُ على هذا ذُهــبِ بالواحدِ منــه اذا أُضيف الــى اثنين مَذْهبَ التثنية[١٩] وقد يجوزُ تثنيتُهما قال أبو ذُؤَيْبٍ:

فَتَخالَسا نَفْسَيهِمْا بِنَوافِذٍ

كَنَوافِذِ العُبُطِ الَّتي لا تُرفعُ

وقد يجوز هذا فيما ليس من خَلْق الانسانِ وذلك أَنْ تقــولَ للرجلين: (خلّيتُما نســاءكُما وأنتَ تريد امرأتينَ وخرَّقَتمُــا قُمُصَكُمــا). وإنَّما ذكرتُ ذلك لأَنَّ مــن النحويين مَنْ كان لا يجيــزهُ الاّ في خلَقْ الانسان وكلٌّ سواء. وقد يجوز أَنْ تقولَ في الكلام: السارقُ والســارقةُ فاقطعُوا يمينَهُما لأَنَّ المعنى: اليمينُ مَن كُلِ واحدٍ منهُما كما قال الشاعر:

كُلوا في نِصْفِ بطنِكُمُ تَعيشوا

فإنَّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَميصُ

(١٧) أي واحد كالقلب والرأس والظهر والبطن وما شاكل ذلك.

(١٨) أراد فُضِّل .

(١٩) في هامــش المحقــق: يريد ان الجوارح لمــا كثر فيها التثنية غلّبت هــذه الجوارح على المفردة فدخلت الأخيرة في بــاب الأولى فإنْ اضيف اثنان من المفــردة الى اثنين فكأنما اضفتَ أربعةً فجُمِعَ اللفظُ لذلك.

وقال الآخر (جرير):

الواردونَ وتيمٌ في ذَرى سَبَأٍ

قَدْ عَضَّ أعناقَهُم جِلدُ الجَوامِيسِ

مــن قال (ذرى) جعل (ســبأ) جيــلاً ومن قال (ذرى) أراد موضعــاً ويجوز في الكلام أَنْ تقولَ: إئْتِنْي برأسِ شــاتَيْن ورأْس شاةٍ فاذا قلتُ: برأس شاةٍ[٢٠]، فإنما أردتَ رَأْسَيْ هذا الجنس واذا قلت: بــرأْسِ شــاتَيْن فإنَّك تريدُ بِهِ الرأسَ من كلَّ شــاةٍ قال الشاعر في غير ذلك:

كأنَّهُ وجهُ تُرْكِيَّيْن قدْ غَضِبا

مُسُتهدِفٌ لِطعانٍ غير تَذْبيبِ[٢١]

وكان كلامُ سعِيد بنِ مَسْعَدة الاخفشِ (ت٢١٥هــ) اكثرَ وضُوحاً فقد ذكر أَنَّ المثنى الذي ورد مجموعاً ثم أُضيفُ الــى المثنّى إنَّما جاء كذلك؛ لأَنَّ التثنيةَ جَمْعٌ، قال وقدْ يبقى المثنى على أصله ثم يضافُ الى المثنّى وقَدْ يكون الواحدُ مراداً به الجمعُ وبيَّن أَنَّ كلامَ العرب جارٍ على أَنَّ كلَّ شيئينِ من شيئينِ جماعةٌ كما في آية التحريــم المتقدمة وقد يكون اثنينِ في الشعر كما في قول الشاعر:

بِما في فُؤادَيْنا من الشْوقِ والهوى

فُيجبرُ مُنْهاضُ الفؤادِ المشعّفُ

وفي قول الفرزدق:

هما نفثا في فِيَّ منْ فَمَوَيْهِما

على النابحِ العاوي أَشدَّ رِجامِ

(٢٠) كــذا ورد والصواب: برأسي شــاة بتثنية رأسي ويدل على هذا ما بعده.

(٢١) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٠٦-٣٠٨، وينظر: الكتاب ١٠٨/١ وامالي ابن الشجري ١٢/١ وخزانة الادب للبغدادي ٣٧٩/٣.

قال وقد يُجْعَلُ من هذا الأسلوب في الشعرَ واحداً واستدلَّ بقول المُسَيَّب بن زيد مناةَ الغَنَويّ:

لا تُنكِرِ القَتْلَ وقدْ سُبِينا

في حِلْقِكِمْ عَظْمٌ وقَدْ شُجِينا

وقول الاخر:

كُلوا في بَعْض بَطْنِكُمُ تَعفُّوا

فَإنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ(٢٢)

أَمّا الشَّـنْتَمْريّ (ت٤٧٦هـ) فذهبُ الى أَنَّ الأكثرَ في كلامِهم اخراجُ مثلِ هذا المثنى الى الجمعِ كراهةً لاجتماعِ تثنيتينِ في اسمٍ واحدٍ لأَنَّ المضافَ اليه مِنْ تمامِ المضاف مع ما في التثنية مِنْ معنى الجمعِ وأَنَّ المعنى في هذا لا يُشكل(٢٣)، ولذا؛ كان مثلُ هذا الجمعِ من المُسْتَعمل المطَّرد(٢٤).

ورأي ابنُ الشَّـجَريّ (ت ٥٤٢هـ) أَنَّ هذا الجمع إِنَّما اسُتْحسـنَ لما بينه وبين التثنية من التقارب من حيـثُ كانت التثنية عدداً تَرَكَّبَ من ضمّ واحدٍ الى واحدٍ(٢٥). وعلّل الفضل بن الحسـن الطَّبْرِسِيّ (ت ٥٤٨هـ) إضافةَ الجمعِ الى المثنّى بأَنَّه جمع بيـن تثنيتينِ ولـذا صرفوا الأول منهمـا إلى لفظِ الجمع لأَنَّ الجمع أخفَّ لأَنَّه اشبهُ بالواحد(٢٦).

نظرة في التعليل المتقدم

تقـدم أَنَّ تحليـلَ الخليـل إضافـة الجمع الى المثنّـى بأَن التثنية جمعٌ وأَنَّ أبا زكريا الفرّاء قال إِنَّ هـذا الجمع راجـعٌ الى أَنَّ كلَّ شـيء في خَلْق الانسـان إذا ذُكِرَ مُضافاً الـى اثنين فصاعداً جُمعَ وان تفضيـل العرب الجمعَ علـى التثنية لأَنَّ أكثر جوارحِ الانسـان اثنان كاليدينِ والرجلينِ فأُجريِ الواحدُ مِن هذه الأعضاءِ كالقلبِ واللسـانِ مَذْهَبَ التثنيـة مع جـوازِ الإبقاء على التثنيـة ومع جوازِ اسـتعمالِ هذا الأسـلوبِ في غير أعضاء الانسـانِ وضـرب لذلك امثلةً اسـتناداً الى الـكلام العربي، وكان كلامُ الاخفـشِ قريبـاً مـن قول الفـراء مع اختلاف أسـلوبه وأمثلته وقد تقدم أَنَّ الشَّنْتَمْريَّ علَّـل إضافـة الجمع إلـى المثنى بأَنَّـه راجعٌ إلى أَنَّ العربَ كرِهوا اجتماعَ تثنيتين في اسـم واحد، وأَنَّ التثنيـة فيها معنـى الجمع. وهو قولُ الخليل الذي تقدم. ويُفهـم أَنَّ تعليلاتِهِمْ كانتْ اجتهاديةً والدليـل على هذا أَنَّهـا لم تَكنْ واحـدة بل كانت مختلفـة، والظاهـر أَنَّ تعليل الخليـل والفرّاء من التعليـلات المهمة في بيان هذا الأسـلوب العربي الفصيح.

متى يجوز هذا الجمع؟

إن المثنـى المجمـوع المضـاف إلى المثنى – عندَ سِـيبويهِ – إِمّـا أَنْ يكون لشـيئين، كلُّ واحد منهما بعضُ شـيءٍ مفردٌ مـن صاحبِهِ، أي يكون شيئاً من شيءٍ ومثَّل له بـ :(ما أَحْسَنَ رُؤوسَهُما وما أَحْسَنَ عَواليهما). وبقوله تعالى: (فقد صغتْ قلوبكمـا)، و(فاقطعُـوا ايدِيهُما) وإِمّـا أَنْ يكون لشيئينِ كلَّ واحدٍ منها اسمٌ على حِدَة وليس واحدٌ منهما بعضَ شـيءٍ وعَبّرَ عنـه بالمنفرد ومثل له بقولهم: (ضَـعْ رِحالَهُما وغِلْمانهُما)(٢٧). وقد أراد

(٢٢) ينظر: معاني القرآن للاخفش /٣٦٦-٣٦٧ ومجاز القرآن ١٩٥/٢ والانصاف في مسائل الخلاف ١٩١/١.

(٢٣) تحصيل عين الذهب: ٢٥٣.

(٢٤) المصدر نفسه: ٢٥٨.

(٢٥) ينظر: أمالي ابن الشجري: ١٢/١ .

(٢٦) ينظر: مجمع البيان: ٣١٢/٩.

(٢٧) ينظر: الكتاب ٢٣٧/٢.

سيبويهِ بما يكونُ شيئاً مفرداً من صاحبه، وشيئاً من شــيءٍ ليس له علاقةٌ جسديةٌ بأعضاء الانسان كالرأس والقلب واليد. وأراد بما يكونُ اسـماً على حِدَة، وليس بعض شــيءٍ وهو المنفرد ما ليس له علاقةٌ بأعضاء الإنسان كالرحل والغلام. وقد تقدم أَنَّ الفرّاء ذكـر أنّ من النحويين من لم يجوّز هذا الجمعَ فيما ليس من خَلْق الانسان وهو عند الفراء جائـزٌ صحيحٌ كقولـك للاثنين: خلَّيتُما نِسـاءكُما وخرَّقتُما قُمُصَكُما[٢٨].

وبناءً على ما تقدم يصحُّ اسـتعمالُ هذا الجمع في قولنا للاثنين فيما انفصل عن الجسد: أمدَّ الله اعمارَكُما ونَسَأ في آجالِكُما[٢٩].

وكان الزجّاجـي (ت ٣٣٧هـ) قد ذكر في باب ما جاء مـن المثّنى بلفظِ الجمعِ هذه المسـألَة وقال إِنَّ كل شـيئين من شـيئين مّما في بدن الانسـان منـه واحد فتثنيتُهُما جمعٌ كقولك: ضربتُ رؤوسَ الزيديـنِ وقطعـتُ أيدَيهُمـا وأرجلَهُما واسـتدل بآية التحريـم واجاز ان تقول: ضربتُ رأْسَـيْهما والأول اكثـرُ في كلام العرب لانَّهـم كرهوا الجمعَ بيـن تثنيتينِ في كلمةٍ واحـدةٍ فصرفوا الأوَّل الى لفظ الجمعِ لأَنَّ التثنية جمع في المعنى وذَكَر من شواهِد التثنية قول الفرزدق:

بما في فؤادَينا من الحب والنوى .....

واستدل بقول الشـاعر الذي جمع بين اللغتين التثنية والجمع:

ومَهْمَهَيْنِ قذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ

ظهراهما مثلُ ظهور التُّرسيْنِ[٣٠]

وجـاء عبـد اللـه بن محمـد البَطَلْيوُسـي (ت ٥٢٠هـ) فقال مسـتدركاً على الزجّاجّي: وأسقط لغـة ثالثة وهي أَنَّ منهم من يُفردُ فيقولُ: ضربتُ رأْس الزيدين إتِّكالاً على فهمِ السامعِ أَنَّ نَفْسَيْن لا يكـونُ لهما رأْسٌ واحدٌ وقرأ بعضُ القَّراء: (فبدتْ لهُما سَوْأتُهُما) على إفرادِ السَّوأَةِ وقال الشاعر في هذه اللغة:

كأنَّهُ وجه تُرْكِيَّيْن قد غضبا

مُسُتهدِفٌ لِطعانٍ غير تذبيبِ[٣١]

وقـد نقـل ابـنُ هشـام الأَنصـاريّ (ت ٧٦١هـ) كلام الزجّاجِّـي المتقـدم وجاء بأمثلـة الزجّاجَّي وشواهده[٣٢].

شواهد المسألة

تقـدم أَنَّ النحوييـن اسـتدلوا علـى فصاحـة المثّنى الـذي ورد مجموعاً مضافاً إلى المثنى في التعبير القرآني، ومن شواهدهم:

١- قولـهُ تعالى: (لِيُبدِيَ لَهُمَـا مَا وُرِيَ عَنهُمَا مِن سَوءَٰتِهِمَا)[٣٣]

(٢٨) ينظر: معاني القرآن ١/٣٠٨ .

(٢٩) ينظر: أمالي ابن الشجري ١/١٢.

(٣٠) ينظـر: الجمـل، للزجّاجـي: ٣٠٢. والمهمهين تثنية مهمـه وهي الفلاة وقذفـين أراد بعيدتين والمـرَت: المفازة التـي لا تنبت شـيئاً والظهر ما غلط مـن الأرض والترس: صفحة من فولاذ او جلد تحمل في اليد للوقاية من السـيف وغيره.

(٣١) كتاب الحلل في اصلاح الخلل من كتاب الجمل: ٣٣٧.

(٣٢) ينظـر: شرح جمـل الزجاجـي: ٣٧٧. وشرح جمل الزجاجـي لابـن عصفـور: ٢/٤٤٤. وينظـر: المقـرّب: ٢/٤٨٤ والحمل على المعنى /٢٠٥ .

(٣٣) الأعراف: ٢٠.

٢- قولهُ تعالى: (بَدَت لَهُمَا سَوءَٰتُهُمَا)[٣٤].

٣- قولهُ تعالى: (لِيُرِيَهُمَا سَوءَٰتِهِمَآ)[٣٥].

٤- قولــهُ تعالــى: (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّــهِ فَقَد صَغَت قُلُوبُكُمَا)[٣٦]

وجــاء ابــن مالــك (ت٦٧٢هــ) بشــاهد قرآني غير مــا ذكره المتقدمون وهو قوله تعالى: (رَبَّنَا ظَلَمنَــآ أَنفُسَــنَا)[٣٧]. ولم يفتهم الاســتدلال بقول العــرب للاثنين: ما أحســنَ وجُوهَهُما وقولهم: قد هشَّــمْتُ رؤُوسَــهُما ومَلأَتُ ظُهورَهُما وبُطونَهُما ضَرْبــا) للاثنين أيضاً. وأورد ابن مالك شــاهدينِ من الحديث الشــريف وهو قوله صلــى الله عليه وآلــه: (إزرَةُ المؤمنِ إلى أَنصافِ ســاقَيْه)، وقول ابن عبــاس رضي اللــه عنهما: (مــرّ النبي صلى اللــه عليه وآله بحائط من حيطان المدينة أو مكة فسمع صوتَ إنسانين يُعذّبان في قبُورِهِما) وقال معلّقاً: (وحَّد في صوت، مثل: اكلتٌ رأس الشاتينِ وجَمْعُهُ أجــودُ[٣٨]. وقد تقدم أَنَّهم احتجوا لإضافةِ الجمع إلى المثنى بالشــعر، ومن ذلك قولُ هميان بن قُحافةِ السَّعْديْ أو خطام المُجاشعيّ:

ومَهْمَــهَيْــنِ قذَفَيْنِ مَرْتَــيْنِ

ظهراهما مثلُ ظهور التُّرسيْنِ[٣٩]

وذكر ابنُ مالك شــاهداً شــعرياً، يُمكُــن أَنْ يُلْحَق بشــواهد الشــعر الخاصة بهذا الأسلوب الفصيح. غير أَنَّ ابن مالك لم يَحْتَجَّ به وهو قول الشاعر:

يا صاحِبيَّ فَدتْ نفسي نُفوسَكما

وَحيثُما كنتُما لاقيــتُما رشدا[٤٠]

وذكــر ابــن مالك شــاهداً آخر هو مــا جاء في حديث الغــار: (فاذا وجدتَهُمــا راقدَينْ قمتُ على رؤوسِهما)[٤١] الاّ أَنَّه لم يَحْتجَّ به ايضاً.

وهــل لنا أَنْ نقــولَ إَنَّ (الســوآت) الواردة في الآيــات المتقدمة تُعــدُّ من الجمــع الحقيقي غير المثّنى إذا قلنا إنَّ لكلِّ انســانٍ سوأتينِ، هما القبُلُ والدبُرُ، ويكونُ الجمع هنا ليس أصله التثنية.

الوجهان الآخران في المسألة

مــع أَنَّ كلامَ النحويــين واضحٌ فــي أَنَّ إضافةَ الجمع إلى المثنى أســلوبٌ عربيٌّ فصيحٌ، إلاّ أَنَّهُم ذكروا أَنَّ في هذه المسألة وجهين آخرين:

أحدهمــا: أَنْ يأتــيَ المضافُ إلى المثنّــى مفرداً.

والآخر: أَنْ يأتيَ المضافُ إلى المثنّى مثّنى.

أَمّــا الوجه الأول: فقد قــال فيه الفــرّاء إنَّه يجوزُ في الكلام أَنْ يقالَ: والســارقُ والسارقةُ فاقطعوا يمينهما، لأَنَّ المعنــى: اليمينُ من كلَّ واحدٍ منهما واستدلَّ بقول القائل:

كُلُوا في نِصفِ بَطْنكُمُ تَعيشوا .....

وذكر شواهد أخرى، وقد تقدم كلامه في هذا[٤٢].

وجاء في استدراك البَطَلْيُوسيّ على الزجّاجّي في جملــة (ضربــتُ رؤوسَ الزيدينِ ورأَسْــيْهما) أَنَّ فيها لغة ثالثة هي: (ضربتُ رأسَ الزيدينِ) اتّكالاً

(٣٤) الأعراف: ٢٢.

(٣٥) الأعراف: ٢٧.

(٣٦) التحريم: ٤.

(٣٧) الأعراف: ٢٣.

(٣٨) ينظر: شواهد التوضيح /٢٥٥.

(٣٩) ينظر: الكتاب:١/ ٢٨١، ٢/ ٢٣٨.والجمل للزجاجي: ٣٠٢.

(٤٠) ينظر: شواهد التوضيح: ٢٣٦.

(٤١) المصدر السابق :٢٣٧.

(٤٢) ينظر: معاني القرآن، للفرّاء: ١/ ٣٠٧-٣٠٨.

على فهم السامع[٤٣]. ونصَّ ابنُ عصفور على أَنَّ وضعَ المفرد موضعَ الجمع في هذه المسألة دونَ الجمع في الحسن واستدلَّ بقول توبة بن الحَميِّر:

حمامةَ بطنِ الواديِيْنِ ترنّمِي

سَقاكِ مِنَ الغُرِّ الغوادي مَطِيرُها[٤٤]

ونُقل عن ابن مالك أَنَّ الإفراد أفضل من التثنية واستدلَّ بما استدلَّ به أبو زكريا الفرّاء[٤٥]، وكان رأي ابنِ هشام الانصاريّ أَنَّ الجمع أفصح في نحو (جاء الزيدان أَنفسُهُما وأَعيْنُهُما) ودونه الإفراد ودون الإفراد التثنية قال: وهي الأوجُهُ الجارية في قولك: (قطعتُ رؤوسَ الكَبشْينِ)[٤٦]. أَمّا الوجه الآخر في المسألة فهو: إِضافة المثنّى الى المثنّى وقد أجازه النحويون. وقد تقدم نقل سيبويه عن شيخه يونس أَنَّ العرب قالت للاثنينِ: ضربتُ رأْسَيْهِما إجراءً على القياس.[٤٧] ، واستدلَّ على ذلك بالشواهد المتقدمة[٤٨]. وقد علَّق ابن منظور (ت٧١١هـ) على قول الفرزدق:

هُما نفثا في فِيَّ مِنْ فَمَوْيهِما

على النابحِ العاوي أَشدَّ رِجامِ

فقال: قوله (اشدَّ رجام) أي: أشدّ نفثٍ. وحقٌّ هذا الكلام أَنْ يكون جماعة؛ لأَنَّ كل شيء من شيئينِ جماعةٌ في كلام العرب إلاّ أَنَّه يجيءُ في الشعر ما لا يجيء في الكلام[٤٩]. وفي إضافة الجمع الى المثنّى قال أبو زكريا الفرّاء: «وقد يجوزُ تثنيتِهُمُا واستدلَّ بقول ابي ذُؤَيْبٍ:

فِتَخالسا نَفْسَيْهما بنوافذٍ....

وقال: ويجوزُ في الكلام أَنْ تقول آتِني برأسِ شاتيْنِ ورأسِ شاةٍ فاذا قلت برأسِ شاةٍ[٥٠] فإِنَّما اردتَ رأْسِي هذا الجنسِ»[٥١].

ولا بدَّ من القول هنا إِنَّ من اللغويين العراقيين النابهين وهو الدكتور مصطفى جواد كان من الذين نوهوا بفصاحة إضافة الجمع الى المثنّى، وذلك في اثناء نقله كلام الأستاذ رزوق عيسى على الألفاظ الدخيلة وهو: «... لأَنَّ تلك العباراتِ عباراتهم المستهجنة هي التي أصبحت السيدة المالكة فؤادنَا والحاكمة على لساننا...».

وقد وضع الدكتور مصطفى جواد هامشاً فوق (فؤادنا) و(لساننا) وقال معلّقاً) :الفصيح: أَفْئِدتُنا وأَلسَنتُنا)[٥٢]، ولم يبيّنْ الدكتور العلّة في هذا التنبيه وجاء في بعض كلام له في الأفعال التي تتعدى لمفعولين قوله: «... ألا ترى أنك تقول: (لَبِس فلانٌ جُبَّة) و(دفع اللهُ السُّوءَ) فهما فاعلان في الأصل ولهما مفعولان حقيقيان فلما دخل على افعالهما ما ينسخ عنهما الفاعلية بقيت لهما المفعولية...» وقد وضع فوق (أفعالهما) الواردة في كلامه هامشَ إيضاح جاء فيه: «قال

(٤٣) ينظر: الحلل: ٣٣٧.

(٤٤) ينظر: المقرّب: ٢/ ٤٨٤.

(٤٥) ينظر: الحمل على المعنى:٢٠٥ .

(٤٦) ينظر: شرح شذور الذهب: ٤٣١.

(٤٧) الظاهر أن المراد بالقياس أَنَّه الأصل وإِنْ لم يكن فصيحاً.

(٤٨) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٣٨.

(٤٩) ينظر: لسان العرب مادة: فمم.

(٥٠) كذا ورد والصواب: برأسي شاة على التثنية.

(٥١) ينظر: معاني القرآن: ١/ ٣٠٧.

(٥٢) المباحث اللغوية في العراق: ٥٨ الهامش (١).

تعالى: (فقد صغت قلوبكما) وليس لكل واحد منهما الاّ قلب واحد»[٥٣]. ولا شك أَنَّه أراد أَنْ ينبّه على أَنَّ جمع المثنّى المضاف أسلوبٌ عربيٌّ فصيحٌ. وقد ذكر الأستاذ وحيد بهاء الدين أَنَّه زار الدكتور مصطفى جواد بداره في ساحة الوصي (النهضة حالياً) وكان مع الأستاذ وحيد كتاب (خَلْفَ اللثام) وهو مجموعة قصصية لرائد القصة العربية محمود تيمور فرغب الدكتور أَنْ يطلع عليه فوقع نظره على عبارة محمود تيمور وهي (فَطَأطأَ الشيخانِ رأْسَيْهما) فقال هذا غلط لغوي فسأله الأستاذ وحيد عن وجه الغلط في هذا فقال مصطفى جواد: ينبغي له أَنْ يقول: «فَطأْطأَ الشيخان رؤوسَهُما». وقد ذهب إلى أَنَّ أسلوب التثنية (رأسيهما) غير فصيح وليس غلطاً، ومنهم من يعدّ غير الفصيح غلطاً واستدلَّ مصطفى جواد بآية التحريم التي مرّ ذكرها وبقوله تعالى (لِيُبدِيَ لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنهُمَا مِن سَوءَٰتِهِمَا) الآية التي مرّت مع أَنَّ لكل منهما سوأةً واحدة[٥٤]. وهذا مما كان يُظن أَنَّه خلاف الأصل في التعبير، فظهر لي أَنَّه الأصل، وأَنَّ ما سواه غير فصيح؛ بدلالة القرآن الكريم وكلام الفصحاء. ثم علَّل الدكتور مصطفى جواد هذا الجمع بأَنَّ العرب تكره إضافةَ اثنينِ إلى اثنينِ، ولا تخشى من إضافة الجمعِ إلى اثنين إذا كان كلٌّ من المضافين لا يملك الاّ فرداً في الوجود كالقلب والسوأة فالالتباسُ ممتنع[٥٥].

وكان الأستاذ وحيد بهاء الدين قد سأل صديقه الدكتور مصطفى جواد: «هل يجوز أَنْ نقول: مدَّ الوالدان يديْهُما أم لا؟»[٥٦]،فأجابه برواية الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في تاريخه[٥٧] . حديثاً في قراءة آية:(لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ) وفي السند قرأت على علقمة والأسود فلّما بلغتُ هذه الآية قالا: «ضَعْ يَدكَ على رأسِكَ فإناّ قرأنا على عبد الله فلما بلغنا هذه الآية قال: ضَعا ايديكُما على رؤوسكُما». وكان رأي الدكتور مصطفى جواد استناداً إلى ما تقدم أَنَّ الصواب: مدّ الوالدان ايَديهُما. إذا كان كلٌّ منهما قد مدَّ يداً واحدة. ويُفَهُم ذلك من القرينة كما في الحديث النبوي الشريف الذي نقلته أنفاً، وكذلك إذا مدّا أيديهم جميعاً والقرينة هي الضابط لمثل ذلك[٥٨].

ويُمكن أَنْ يُضافَ إلى إضافةِ الجمع إلى المثنّى كلامُ الإمام علي عليه السلام في معنى الحكمين وهو قوله: «فأَجمعَ رأيُ ملئِكُم على أَنْ اختاروا رجلينِ: فأخذنا عليهما أَنْ يُجِعْجِعا عند القرآن ولا يجاوزاه وتكون السِنتُهما معه وقلوبهُما تبعه

(٥٣) ينظر: دراسات في فلسفة اللغة والنحو والصرف:٥٠ الهامش (١) . وينظر: كتابنا: من هوامش الدكتور مصطفى.
جواد اللغوية: ٦٢.

(٥٤) إذا كان للإنسان سوأتان هما القبُل والدبرُّ فإنّ هذا الجمع على أصله وحقيقته ولم يكن مثنى.

(٥٥) ينظر: مصطفى جواد فيلسوف اللغة العربية وخططي بغداد الفرد: ٩١-٩٢.

(٥٦) كذا ورد في السؤال ولم ينبّه الدكتور مصطفى جواد على هذا الخطأ في الجملة الاستفهامية ودخول (أم) مع(هل).
والصحيح أن يكون الاستفهام بالهمزة.

(٥٧) تاريخ بغداد: ١/٣٧٧.

(٥٨) مصطفى جواد فيلسوف اللغة العربية:٩٢.

فتاها عنه وتركا الحق وهم يُبصِرانه وكان الجورُ هواهُمــا والاعوجاجُ رأيهما وقد ســبق اســتثناؤنُا عليهمــا في الحكم بالعــدلِ والعملِ بالحقّ ســوءَ رأيِهمــا وجورَ حُكمِهمــا...»[٥٩]، فقــد جمع عليه السلام في كلامه المتقدم (ألسنِتِهُما) و(قلوبَهُما) وافــرد (هواهُمــا) و(رأيَهُمــا) فــي موضعيــن و(حُكْمهُمــا) فــي آخر كلامه وممّــا جاء في كلام الإمام عليه الســلام متعلقاً بهذا الأسلوب قولهُ في ذكــر أصحابِ الجمــل: «فخرجوا يجــرّون حرمةَ رســولِ اللــه صلى الله عليــه وآله كما تُجُــرُّ الأَمَة عند شــرائِها متوجهين بها إلى البصرة، فحَبســا نِســاءَهما في بيوتِهما، وأبرزا حَبيسَ رســولِ الله (ﷺ)[٦٠]، فقــال: فخرجــوا أراد أصحاب الجمل، وثنّى في (فحبســا) و(ابرزا) لأَنَّــه أراد القائدين اللَّذينِ أخرجا حرمة رســولِ اللــه صلى الله عليه وآله. وقد جمع (نِساءِهُما) و(بيُوتَهُما) في كلامه عليه السلام حين أسند هذا الجمعَ إلى القائدين.

الخلاصة

تقــدّم أَن النحوييــن حين تكلّمــوا على إضافة الجمــع الــى المثنّى ذكــروا أَنَّ في هذه المســألة وجهيــن آخرين وهما: إضافــة المفرد الى المثنى واضافــة المثنى الى المثنى الاّ أَنَّ الوجه الأول هو الوجه العربي الافصح الذي نطق به القرآن الكريم في أكثرَ من موضــعٍ والظاهرُ من كلام النحويين أَنَّ هــذا الوجه الافصحَ جاء فــي الغالب فيما كان متعلقــاً بأعضاء الانســان مــا كان منهمــا مفرداً كالقلــبِ واللســانِ والــرأسِ وما كان منهــا مثنّى كاليديــنِ والرجلينِ على أنَّه جــاء في غير أعضاء الانسان وقد تقدّم أَنَّهُم عللّوا لهذا الأسلوب العربي بتعليلات نحوية ولعل أقرب هذه التعليلات للواقع هو أَنَّ الجمعَ عند العــرب أخفُّ من التثنية وأَنَّهم كرهــوا الجمع بيــن تثنيتينِ عنــد الإضافة ولذا لم يُضيفــوا المثنّى الى مثله بــل أَضافوه الى الجمع وكما نبّــه المتقدمون على فصاحة هذا الأســلوب نبّــه المتأخــرون وكان منهــم العلاّمــة العراقــي الدكتــور مصطفــى جــواد الــذي زاد علــى أدلة المتقدميــن فجاء بما يؤيَّد فصاحةَ هذا الأســلوبِ ولا شــك أَنَّ جهــودَ علمائنــا القدمــاء والمحدثين كانت جهوداً لغوية طيبة دلَّت على حبَّهم للعربية؛ وذلك أَنَّهم أفنوا أعمارهم في تتبّع أســاليب الكلام العربــي، وبيان درجاتهِ في الســلامة والفصاحة؛ خدمةً منهم للعربية التي هي لغة القرآن الكريم ، والحمد الله أولاً وآخراً.

(٥٩) نهج البلاغة /طبعة الشيخ محمد عبده ١١٧/٢.

(٦٠) نهج البلاغة ١٠٤/٢

مصادر البحث ومراجعه

• **القرآن الكريم**

• أمالي ابن الشـجري، تحقيق ودراسة: د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٦م.

• الانصاف في مسـائل الخلاف، عبـد الرحمن بن محمد الانبـاري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد، ط٤، ١٩٦١م.

• تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٧م.

• تحصيـل عيـن الذهب، الأعلم الشـنتمري (ت ٤٧٦هـ) حققّـه وعلّق عليـه د. زهير عبد المحسـن سـلطان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،١٩٩٢.

• الجمـل للزجاجّي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق: محمد بن أبي شنب، باريس، ١٩٥٧.

• الحُلَـل في اصلاح الخَلَل من كتاب الجمل، البطليوسـيّ (ت٥٢٠هـ) تحقيق: سـعيد عبد الكريم سعودي، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.

• الحمـل علـى المعنـى فـي العربيـة، د. علي عبـد الله العنبكي، ديوان الوقف السني، بغداد ٢٠١٢م

• دراسـات في فلسـفة النحو والصرف واللغة والرسـم، مصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٦م.

• شـذور الذهـب، ابن هشـام الانصـاريّ (ت٧٦١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٩٧م.

• شـرح جمـل الزجاجّـي، ابـن عصفور الأشـبيلي، (ت ٦٦٩هـ)، تحقيـق: د. صاحب أبـو جنـاح، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف، ١٩٨٢م.

• شـرح جمل الزجاجّي، ابن هشـام الانصاري، دراسـة وتحقيق: د. علي محسـن عيسى مال الله، مكتبة النهضة العربية، ط ، بيروت، ١٩٨٦م.

• شـواهد التوضيـح والتصحيـح لمشـكلات الجامـع الصحيح، ابن مالك (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: د. طه محسن، بغداد، ١٩٨٥م.

• الصاحبـيّ، ابـن فـارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيـق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٩٧٧م.

• فقه اللغة وسـرّ العربية، الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق السقا وآخرين، مطبعة البابي الحلبي، مصر،١٩٥٤م.

• الكتاب، سـيبويه، تحقيق وشـرح: عبد السـلام محمد هارون، بيروت، ١٩٨٦م.

• لسـان العرب، ابـن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

• المباحث اللغوية فـي العراق، مصطفى جواد، القاهرة ١٩٥٥م.

• مجـاز القرآن، معمر بـن المثنّى (ت٢١٠هـ)، تحقيق: فؤاد سزكين، مطبعة السعادة، مصر،١٩٥٤م.

• مجمـع البيان في تفسـير القرآن، الفضل بن الحسـن الطبرسّي (ت ٥٤٨هـ)، مطبعة العرفان، صيدا ،١٩٧١م.

• مصطفى جواد فيلسـوف اللغة العربية وخططي بغداد الفـرد، وحيد الديـن بهاء الديـن المكتبة الاهليـة، بغداد ١٩٧١م.

• معاني القرآن، الاخفش (ت ٢١٥هـ) دراسـة وتحقيق: الدكتـور عبـد الأمير الـورد، عالـم الكتـب، ط١، بيروت ٢٠٠٣م.

• معانـي القـرآن، الفـرّاء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيـق احمد يوسـف نجاتـي ومحمـد علي النجـار، الهيئـة المصرية العامـة للكتـاب ط١ القاهـرة، ١٩٨٠م. جـ٢ تحقيـق ومراجعـة الأسـتاذ محمد علـي النجار، الهيئـة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٠م. جـ٣، تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل ومراجعة علي النجدي ناصف/الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

• المقـرّب، ابن عصفور الأشـبيلي، تحقيق د. احمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، بغداد ١٩٧١م.

• مـن هوامـش الدكتور مصطفـى جواد اللغويـة، رتَّبها وعلّـق عليهـا: طه هاشـم الدليمـي، المطبعـة المركزية، جامعة ديالى، ٢٠١٨م.

• نهـج البلاغة، الشـريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق الشـيخ محمد عبـده ومراجعـة محمد محيـي الدين عبد الحميد، د.ت